آثـــار العـــراق .. كـيف نهـبـت ودمـــرت ؟

ترجمة / ابتسام عبد الله.

عن الكتب التالية:
١. تدمير الميراث الثقافي في العراق بقلم بيترستون ، جوان فارجاخ بيجالي.
٢. تحف تحد الحصار: بقلم لورنس روثفيلد
٣. الاثار وبناء عراق جديد: بقلم ماغنوس. ت بيرنها ردسون.

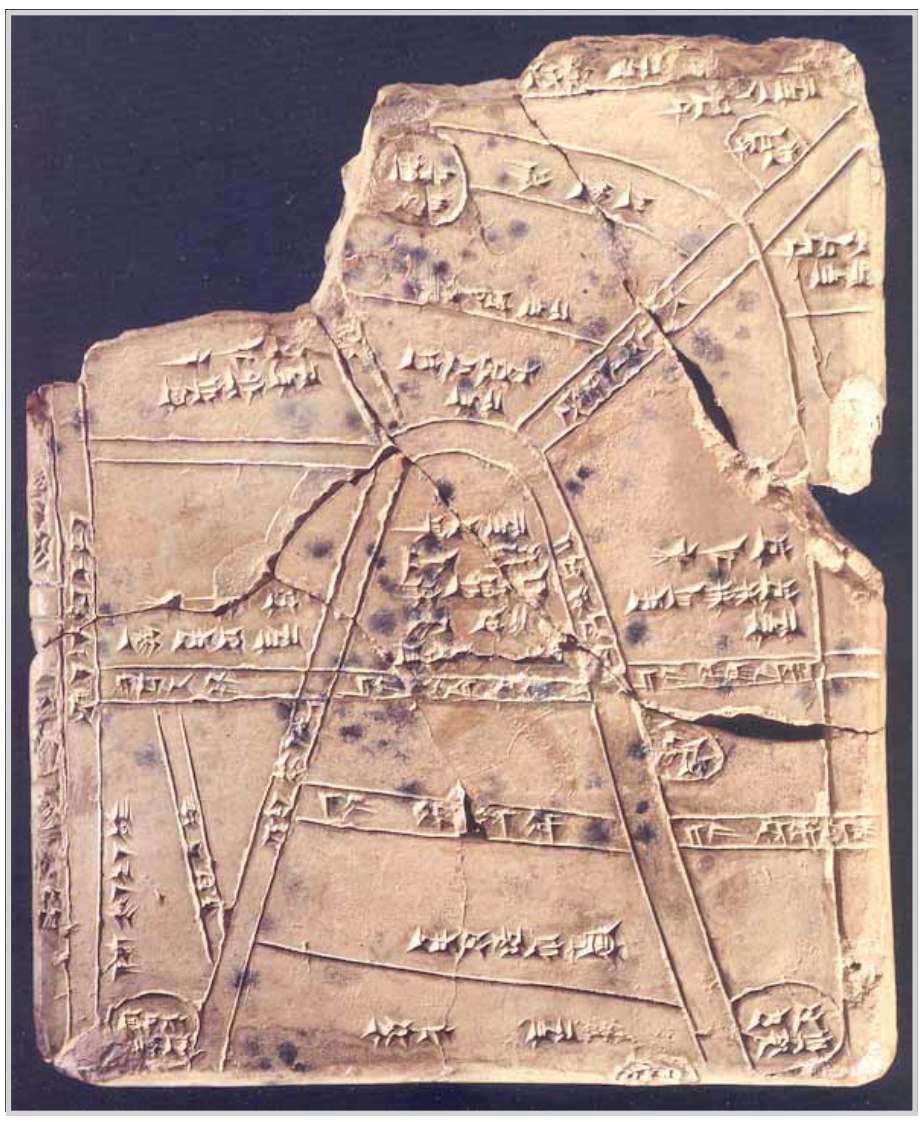

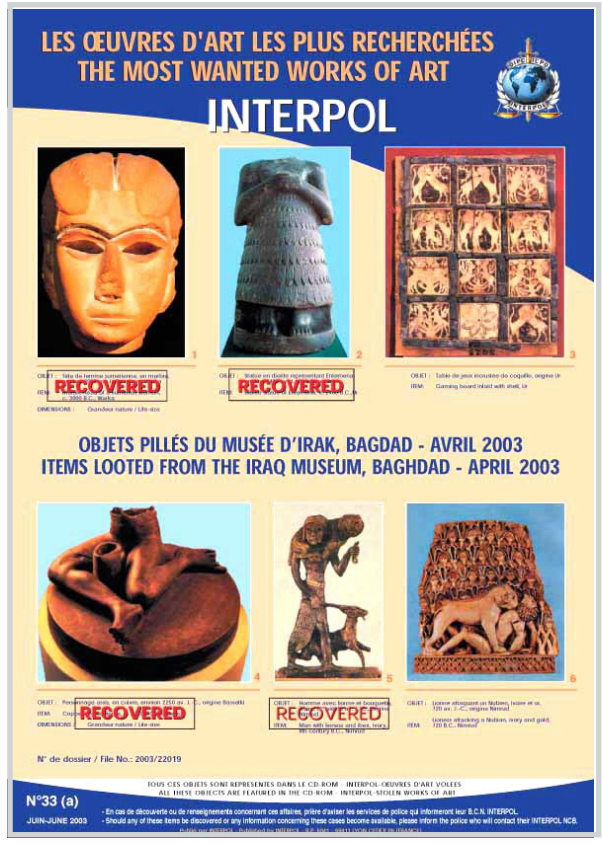

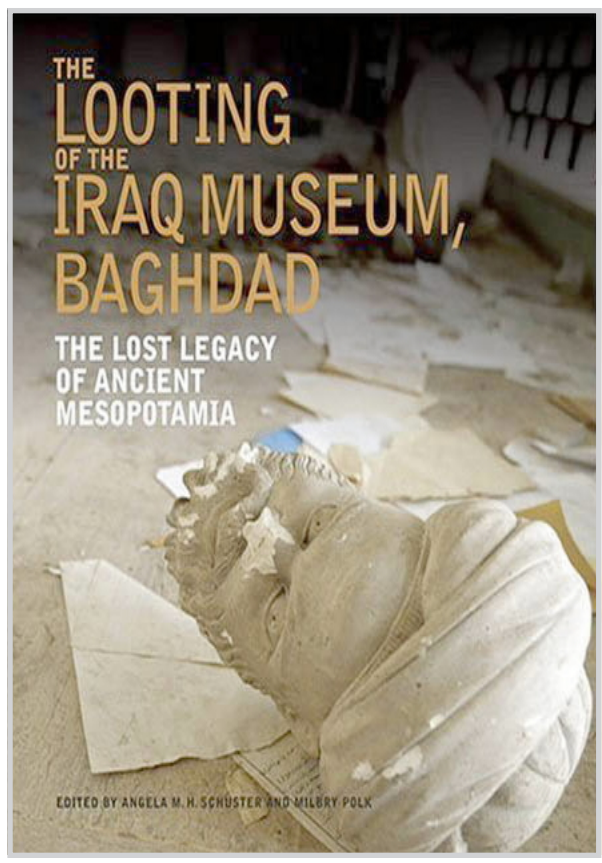

العراق..حضارة ستة الاف سنة.

قبل ستة الاف سنة من ميلاد السيد المسيح، انشأ السومريون حضارتهم في جنوب العراق الذي اطلق عليه الاغريق فيما بعد اسم ميوبوتاميا وقد بنى السومريون في ذلك الوقت اولى ما يعرف بالدولة المدينية ، أي دولة ذات سيادة مؤلفة من مدينة مستقلة والمناطق الخاضعة لسلطانها المباشر ، كما انهم استنبطوا نظاماً معقداً للكتابة ، ومع مرور الزمن اصبحت المنطقة تلك تحت سيطرة الاكديين، البابليين والاشوريين والفرس، والاغريقيين قبل اكتساح الاسلام لها في القرن السابع.
احتفظ العراق على مر القرون بآثاره الحضارية والثقافية التي كانت على شكل الواح من الطين مكتوب عليها بكتابة مسمارية ، واختام محفورة على شكل الاسطوانة من مادة الهيماتيت وهو حجر من خامات الحديد، كان يتم استيراده ، وايضاً من اللازورل واحجار اخرى مشابهة. شبه الثمينة والتي ان درجت على الطين المبلل او اية مادة اخرى ناعمة، تكون النتيجة انطباعات مذهلة لطقوس الحياة اليومية التي كانت سائدة انذاك.
ونظراً لقلة وجود آثار او نصب معمارية كثيرة فوق الارض فان المدن المدفونة التي حفظت تلك المواد وقاومت قروناً من العنف منذ وصول الاغريق الى الغزو المغولي عام ١٢٥٨ ، وغياب تطور مديني لاحق عبر ايضا عن خلو السجل الاثاري بشكل غير طبيعي ، ومع ذلك فان عدداً من المواقع الاثارية دمرت منذ عام ٢٠٠٣، وربما ان عشرات الالوف من الاختام والالواح الطينية قد نقلت من اماكنها وهربت الى الاسواق غير الشرعية.
ويقول جيل شنين ، مدير المعهد الشرقي لجامعة شيكاغو في دليل المعهد ، ان ماحدث في جنوب العراق ،كارثة حقيقية ويقوم المعهد باعاقة اقامة معرض جديد عن الموضوع" انه لاشيء غير استئصال للسجل المادي لاقدم مدنية في العالم وحضارة ادبية ، الاهم من ذلك ، في هذا الوقت الذي يزداد فيه اهتمام العالم للتأثيرات المدمرة لنهب الاثار ، وتدمير سومر بعد الغزو الذي حدث عام ٢٠٠٣، والذي لم يتم الاعتراض عليه من قبل القوات الامريكية والبريطانية، يثير العديد من الاسئلة ويطرح علامات الاستفهام.
ومنذ ان نهب متحف بغداد في نيسان عام ٢٠٠٣، اخذت الصحافة العالمية بمنح مساحات كافية للتراث العراقي القديم المعرض للخطر ، ومعظم تلك المساحات خصصت للمتحف والحملة القوية لاستعادة الاعمال المسروقة ، والكفاح المتواصل لاعادة فتح قاعاته.
والمشكلة بالنسبة للصحفيين هي عدد المواقع الاثارية. فهناك الوف منها . والكثير من المجموع في مناطق نائية، في محافظة ذي قار وحدها ، والحظر كامن من اجراء أي تحقيق حولها. ويمكن اعتبار المخرج السينمائي ميكا غارين وشريكته المصورة الفوتوغرافية ماري هيلن كارلتون الصحفيان الغربيان الوحيدان اللذان نجحا في كتابة وتصوير تقارير كثيرة عن نهب الاثار في جنوب العراق وتم اختطاف غارين في عام ٢٠٠٤ لمدة تسعة ايام، ومن الجدير بالذكر انه مع عمليات توسع عمليات النهب فان القليل جدا من تلك القطع الاثارية، ظهرت في الاسواق الفنية ، وتقول النظريات ان اماكن اخفائها مختلفة فهي اما محفوظة في مخازن بدمشق اودبي او انها محفوظة في امريكا او اليابان ففي حزيران من هذا العام، وللمرة الاولى منذ ٢٠٠٣، قامت مجموعة صغيرة بقيادة جون كيرتس ، امين مجموعة الشرق الاوسط في المتحف البريطاني ، بزيارة ثمانية مواقع مهمة في جنوب العراق بواسطة طائرة سمتية زودت من قبل القوات البريطانية في البصرة، مهمتهم كانت محدودة والمواقع الثمانية كانت في الجنوب حيث كان النهب على اشده ولكن المواقع التي تمت زيارتها، كانت الحفريات فيها كما وجدوا بعيداً عن النظام والتنسيق ، فمواقع اوروك اريدو ولكش لم تعان الا القليل او لم تنهب ، في حين ان لارسا والمواقع الاخرى تعرضت للنهب بشكل مكثف ، ويقول كيرتس على المرء ان لايقلل من دور سكان المنطقة في هذا الامر.
وبالتأكيد انهم في لكش كانوا يمنعون ذلك بقوة، اما في المناطق الاخرى فهم قد شاركوا ربما في النهب.
وهذه الزيارات الحديثة اكدت ايضا تلك التحليلات التي تم الحصول عليها من الاقمارالصناعية من قبل اليزابيث ستون، وهي آثارية في جامعة نيويورك في ستون بروك، وكانت ستون رافقت كيرتس في رحلته ، وفي الاشهر التي سبقت غزو عام ٢٠٠٣، قامت شركة ديجيتال غلوب من كلورادو ، بالتقاط صور عبر الاقمار الصناعية لجنوب العراق بناء على طلب البنتاغون ، وادركت ان تلك الصور تتضمن الاثار والمدن القديمة المدفونة تحت مواقع ميسوبوتاميا ومع دعم جمعية ناشنال جيوغرافي وايضا المنح الناشنال ايذاومينت الانسانية ومعاهد اخرى، قامت بشراء تلك الصور ونشرها في اوائل العام، واصبحت لديها معلومات عن زهاء الفي موقع آثار.
ان الكشف عن بعض ما تم العثور عليه في ميسو بوتاميا من القبور الملكية في اور الى النصوص الادبية في نيبور قد جاءت بفضل الحفريات في جنوب العراق، ومع ذلك فان ستون قدرت ان الحد الملكي لما نهب يفوق مرات كثيرة الكشوفات الآثارية كافة التي جرت في الجنوب والتي شملت الالواح النقود، الاختام الاسطوانية ، تماثيل ، فخاريات ، ومواد برونزية وغيرها، واعدادها تفوق مئات الالوف، وبما ان هذه اللقى قد انتزعت من اماكنها الاصلية ، او انها في عدد من الحالات قد دمرت ، فان معظم المعلومات الكافية التي تتضمنها . حتى ان ظهرت ثانية . قد طمست .
ولكن الاكثر اثارة في تلك الصور التي التقطتها الاقمار الصناعية ، ما تحكيه لنا عن اللصوص، الاول، انه على الرغم من وجود مواقع ميسو بوتاميا المهمة عبر البلاد، فان عمليات النهب المكثفة قد جرت في اماكن معينة، واخرون من الذين كتبوا عن السرقات بعد الغزو مباشرة اكدوا ان مواقع في الشمال لم تكن هدفاً بشكل عام. ولكن ستون قادرة على إظهار بعض المناطق في الجنوب من العراق، ومنها اواسط بابل، وحوض اريدو جنوب الناصرية بقيت على مايرام بينما السرقات الكبرى الثقيلة حدثت فيما حول ذي قار وحدودها مع المحافظات الاخرى.
ثانياً، ان هذه الصور توضح ان الموجة الكبيرة الاولى للنهب، حدثت في الحقيقة قبل وصول قوات التحالف، والصور التي التقطت في اوائل ٢٠٠٣ تعطي دليلاً على حفريات جديدة، لم يتم بحثها من قبل الآثاريين ، وهذا يدل على ان محاولات السرقة بدأت منذ ذلك الوقت ، وتقول ستون ان توقيت بدء اعمال الحفر تلك تزامن مع التهديدات الامريكية المتصاعدة والتوقعات الخاطئة من ان قوات الاحتلال ستقوم بفرض الامن ، ومع ذلك فان اعمال السرقة والنهب توسعت وبصورة منظمة بعد انتشار النهب في بغداد في نيسان وايار عام ٢٠٠٣، عندما دمرت مواقع مهمة جداً من بينها إيسن واوما . وفي صور الاقمار الصناعية ، تبدو حفر إيسن اكثر اسواداً ما يدل على انفاق عميقة تصل الى الاطوار الاولى للتاريخ البشري هناك.
واخيراً ، فان ستون قادرة على التأكيد ان النهب عندما بدأ كان انتقائياً، وقد تركزت السرقات على مرحلة ما قبل التاريخ والعصر البرونزي نزولاً الى عصر اوروك . اول دولة مدينية كبيرة في التأريخ، في اوائل القرن الثالث قبل الميلاد، عندما كان جلجامش الاسطوري ملكاً ، حيث نجد آثار تلك المرحلة لم تمس. وكذلك ايضاً المواقع الاثارية العديدة في المنطقة التي تعود الى الحقبة البابلية الحديثة (٥٣٩ . ٦٣٠) قبل الميلاد، او العصر الاسلامي، وعلى العكس من ذلك فان النهب كما يبدو قد تحول الى تفتيش دقيق في المواقع الاكدية للمرحلة مابين (٢١٠٠ . ٢٣٣٥) قبل الميلاد ، عندما تطورت الاختام الى شكل فني بديع كما كانت هناك سرقات واسعة في مواقع الحقبة البابلية القديمة (١٦٠٠ . ٢٠٠٠) قبل الميلاد، خاصة تلك المعروفة بالواح الخط المسماري، وفي مواقع تعود الى قرون عندما كانت البلاد تحت التاثير الفارسي والهيليني ، مابين (٥٣٨ قبل الميلاد الى ٦٣٧ بعد الميلاد)
عندما انتشرت الاعمال الزجاجية والنقود المعدنية (بشكل واسع) كما تعرضت الاثار التي تعود الى الحقبة البابلية القديمة (١٦٠٠ . ٢٠٠٠قبل الميلاد) الى نهب مكثف وخاصة الواح الكتابة المسمارية.

في اعوام التسعينيات بدأ النهب

بعد حرب الخليج الاولى في عام ١٩٩١ ، شهدت عدد من المواقع حوادث سرقة قطع من الاثار ، خاصة بعد ان اهملت السلطات الحكومية الشؤون الزراعية في جنوب العراق، ومضافاً الى ذلك ، الحصار القاسي الاقتصادي الذي فرض على البلاد، تلك العوامل دفعت العديد من الفلاحين الى السرقة والنهب وبيعها بعدة الوف من الدولارات في الاسواق الاجنبية.
وفي اعوام التسعينيات برز عدد من جامعي التحف في هذا المجال ومنهم ج .ب . مورغان الاسم الاكثر شهرة في مجال شراء الاثار العراقية وقد عرض في مزاد كريستي بعض تلك التحف من الاختام في عام ٢٠٠١ بمبلغ ١,٥ مليون دولار، اضافة الى قطع من المجوهرات الاكدية تعود الى القرن الثالث عشر قبل الميلاد وبيعت بمبلغ ١٠٠٠٠٠ دولار.
وقرارات الحصار الاقتصادي الذي فرض من قبل الامم المتحدة، وايضاً مناطق حظر الطيران المحدودة، اسهمت في تشجيع السارقين لتهريب ما ينهب الى الخارج، عبر الاردن وسوريا وكردستان والخليج.

قوات التحالف تجاهلت النهب المنظم

في الاسابيع التي تلت الغزو الامريكي ونهب المتحف العراقي، بنيسان عام ٢٠٠٣، بدأت الصحافة العالمية تنشر تقارير متعددة عن النهب المنظم على الاثار العراقية القديمة، وقد تم هذا الامر كما اكدت صحف اجنبية وخبراء معروفين، تحت سيطرة عملاء مختصين بالاثار، مسلحين على نحو ثقيل، قاموا بالسيطرة على الطرق الرئيسة المؤدية الى المواقع المهمة من اجل حماية من يعملون لحسابهم وكانوا اولئك مئات من الفلاحين قد جاءوا ليعيشوا في المواقع والبحث عن التحف الآثارية.
كان عملهم يبدا قبل شروق الشمس بساعات عدة حتى الظهر، حيث يتسلم العمل منهم وجبة اخرى تعمل حتى ساعة متأخرة من الليل ، بواسطة مصابيح تعمل على بطاريات السيارات.
هذه السرقات تم تجاهلها من قبل قوات التحالف المتركزة جنوباً، وهذه الحركة الضخمة خلقت اقتصاداً جديداً اساسه النهب الذي تسيطر عليه قبائل معينة وعملاء الاثار وجهات اخرى مسؤولة. وكان عام ٢٠٠٤ حسب تقدير الخبراء العام الاكثر نشاطاً بالنسبة للنهب والاثار المنهوبة تتوجه عبر المنافذ الجنوبية للعراق الى دول الخليج او الى الاردن او سوريا (بدات حكومتهما بالتعاون مع العراق في اعادة تلك الاثار اليها) او الى اسرائيل ولندن عبر دبي، لتجد طريقها الى الاسواق العالمية في الغرب.
منذ عدة اعوام وجهات غير حكومية وشخصيات ثقافية عدة ومنها اليونسكو ترفع اصواتها محذرة من تدمير حضارة العراق القديمة وماضيه، وقد استطاعت تلك الجهات باثارتها للموضوع عالمياً القاء الضوء على ما يسميه الاثاريون بـ "الكارثة" مشيرة الى فشل القوات الامريكية والبريطانية في تأمين أي حماية ولو بسيطة للمواقع الاثارية، كما ان بعض المواقع تضررت بشكل كبير بسبب وجود القواعد العسكرية الاجنبية بالقرب منها كما في بابل.
اما اليوم ، فان صفحات النهب والسرقة كما يبدو قد انحسرت ، بعد ان سجلت عليها اوسع عمليات نهب وتدمير اثار قديمة في العصر الحديث.

عن ذا نيويورك ريفيو

هـــايـــنـــه .. و صـــــور الأســفـــــار

ترجمة : عادل العامل

هنريك هاينه

هنريك هاينه
الكتاب / (صور الأسفار)

وصف هنريك هاينه Heinrich Heine (1797 ـ ١٨٥٦) نفسه ذات مرة ، كما جاء في عرض مايكل ديردا لكتاب (صور الأسفار) ، بأنه الرومانتيكي الأخير و أول العصريين ، الأمر الذي يمكن أن يفسر الربط الساحر بين المازح و الجاد في عمله الأدبي . و يتذكره الناس اليوم كثيراً لشعره الشبيه بالقصة الشعرية ballad-like، المعدّ كثير منه لموسيقى من تأليف شوبرت ، وولف و مؤلفون آخرون . و على كل حال ، فإنه في أيامه هو ، كان مؤلف تحف شعرية مثل (Die Lorelei) حول السيرانة (جنية البحر) التي تغوي بحارة الراين بقدرهم المحتوم ـ يحتفى به أيضاً ككاتب نثر ، قضى الكثير من عمره في باريس كصحافي ، و هو يبين الفرنسيين للألمان و الألمان للفرنسيين .
و من بين أكثر إنجازات هاينه النثرية سحراً (صور الأسفار Travel Pictures)، و هو سلسلة من مذكرات سفر غريبة نُشرت الآن في طبعة جديدة جميلة . و كانت الأولى ، (رحلة هارز) ، قد ظهرت في عام ١٨٢٦ و تبدأ بهذه الطريقة : " تعود مدينة غوتينجين ، المشهورة بسجقها و جامعتها ، للملك هانوفر و تضم ٩٩٩ بيتاً ، و كنائس متنوعة ، و مستشفى للأمومة و راكيستلر فيه البيرة جيدة جداً " .
من هذه الافتتاحية الجريئة يمضي هاينه سريعاً إلى كوميديا صريحة . فالقراء المحتاجون لمعلومات واقعية عن غوتينجين ، كما يقول لنا ، سيفعلون الأحسن باستشارتهم " الطوبوغرافيا المفهرسة جيداً من تأليف ك. ف. هـ. ماركس " . و ما ماركس هذا موثوق به كلياً : " و علي أن أقوم باستثناءات بالنسبة لإخفاقه في قيامه على نحو فعّال بمناقضة الاعتقاد بأن فتيات غوتينجين يمتلكن أقداماً كبيرة بشكل مفرط " . أقدام . كبيرة . بشكل مفرط . " لقد انشغلت ، في الواقع ، لبعض الوقت تماماً الآن ، في التحضير لدحض يتسم بالجدية لوجهة النظر المظللة هذه ... و قضيت ساعات في دراسة أقدام آنسات عابرات " .
في هذه النقطة يضرب هاينه ضربته فقط : " و أنا في بحثي المثقف أخطط لبسط نتائج دراساتي بموجب القواعد التالية : ١) الاهتمام بالأقدام عموماً ، ٢) الاهتمام بأقدام القدماء ، ٣) الاهتمام بأقدام الفيلة ، ٤) الاهتمام بأقدام فتيات مدينة غوتينجين ، ٥) جمع كل ما قيل للتو في ما يتعلق بهذه الأقدام في (حديقة بيرة أولريتش) ، ٦) إمعان النظر في الأقدام المذكورة في سياقها التشريحي ، و من هنا سأنتهز الفرصة لتوسيع الاهتمام إلى العجول ، الركب ، إلى آخره ، و أخيراً ٧) إذا استطعت أن أظهر إلى النور صفحات كبيرة بما فيه الكفاية ، سأضمنها ، كملحق ، فاكسات عديدة لا تُنسى عن أقدام السيدات موضوع البحث " .
و من الواضح أن (صور الأسفار) ليس بمرشدك النموذجي . و في بعض الأحيان ، فإن (رحلة هارز) ـ التي يفر فيها هاينه من غوتينجين ليمضي متسكعاً في الجبال ـ تبدو كما لو أنها كُتبت من قبل بيل برايسون أو حتى العبقري الهزلي الأيرلندي العظيم فلان أوبرين . هناك اثنتان أخريان من المذكرات في (صور الأسفار) ـ و كلاهما من توسكاني ، " حمامات لوكا " و " حداثتنا الكئيبة الواسعة " ، و حكايات الجن الألمانية ، و طبيعة الحب و حب الطبيعة ، و منافع و (أضرار) الكاثوليكية ، و البروتستانتية ، و اليهودية . و هي تضم نتفاً من الشعر ، تهجمات على أعداء هاينه ، و انطباعات عن غوته و " دون كيخوته " ، و حتى أهزوجة لنابليون . هذا ، إضافة إلى ما فيها من إيقاع رشيق في النثر و التشبيهات المحببة الهادئة ، و عبارات تشكل رواية كاملة بحد ذاتها ، و حكايات رمزية .
و قد أكد ماثيو أرنولد في مقالة بارزة على ما تمتع به هاينه من " صفاء مدهش ، و تألق ، و حرية " . و على امتداد حياته ، مع ذلك ، كان رجل الأدب المازح هذا جدياً تماماً في دفاعه عن الحريات المدنية و الحرية الدينية ، معتبراً من بين أصدقائه ليس فقط الفنانين مثل بلزاك و بيرليز بل و ثوريين مثل كارل ماركس . و لقد ذكر في مسرحية له ببصيرة نافذة أنه " حيث يبدأون بحرق الكتب ، سينتهون بإحراق الناس " .
و من المحزن أن هذا الكاتب اللامع قد قضى سنواته الثماني الأخيرة طريح الفراش ، يتعذب من آلام ناجمة عن انحلال عموده الفقري . و قد قيل أنه علق قبل موته قائلاً : " بالطبع ، سيغفر الله لي . ذلك عمله " !

he Wall Street Journal